مقدمـــــــة

تواجه حياتنا التعليمية صورا من صور الاختلال الـسلوكى ، علـى مستويات شتى ، قد لا نستطيع أن نستثنى منها مرحلة تعليمية دون أخرى ، فكما أننا نلمس هذه الاختلالات فى مرحلة التعليم الأولى ، نلمسها كـذلك فى مرحلة التعليم الجامعى .

ولا يقتصر الأمر على فئة بعينها من فئات المجتمـع التعليمـى مـن معلمين وطلاب وإداريين ،وفنيين ، بل انتشر الخلل وكأنـه وبـاء بـدا باعتباره طوفانا يكتسح أمامه أى محاولات للمقاومة والإصـلاح ، وهـى بطبيعة المرحلة ، والظروف ، والسياقات ، ضعيفة أصلا فيكون سـقوطها سريعا ، مع رفع الرايات البيضاء .

ولا نريد أن نسوق أمثلة هنا ، فما من كتاب لنـا كتنـاه إلا ويحمـل العشرات من الأمثلة ، إلى درجة قد تصل بها فى لاحقيقة إلى إلى المئات ، وإلى الدرجة التى يعتبرنا البعض معها " سوداوى " النظر ، عينانا معلقـة فقط بنصف الكوب الفارغ ، وهو ظن حسن فى الحقيقة لأننا لو كنا نـرى أى سائل فى الكوب ، حتى ولو ربعه ، لهان الخطب ، ولفت نظرنا ، لكن المشكلة أن الكوب فارغ تماما .

وكل هذه الصور من الاختلالات الهيكلية يمكن أن نختزلها فى تعبيـر واحد هو الذى عنونا به الكتاب الحالى (غروب الضمير) ، فالضمير هو " مجمع " لخلاصة التجارب التى نمر بها ، وما تلقيناه مـن مثـل ، ومـا تعلمناه من معايير ، وما تربينا عليه من تعاليم ربانية ونبوية ...هو هذا القاضى ، والمرشد ، والموجه والحاكم الذى أودعه الله فى أعمقانا من أجل أن نهتدى إلى سواء السبيل ، والصراط المستقيم الذى ندعو المـولى عـز

وجل فى كل صلاة ، عدة مرات مع قراءتنا " الفاتحة " " اهدنا الصراط المستقيم " ، دون أن نجد أنفسنا قد أصبحنا بالفعل على طريقه .

هل يعنى هذا أننا ، رغم كثرة الدعاء ، لا تلقى دعوتنا استجابة من المولى سبحانه وتعالى ؟

الحق – فى تصورنا – أن المسألة ليست أن يتلفظ لساننا بعبارات الدعاء ، ولا أن تهتز قلوبنا به ، ذلك أن هناك مواصفات وشروط وقواعد لابد أن تؤخذ بعين الاعتبار ، عملا وتنفيذا ، لا معرفة ووعيا فقط ، وموقفنا هو أشبه بالتلميذ الذى يدعو الله عز وجل أن يأخذ بيده وينجح فى الامتحان ، فهل يمكن لأحد أن يتصور إمكان نجاح هذا التلميذ بمجرد الدعاء مهما اشتدت حرارته وسالت الدموع على الوجنات؟

كلا ، لابد أن تؤتى البيوت من أبوابها ، ولابد من الأخذ بالأسباب ، وهى فى حالة التلميذ الذى يستعد للامتحان ، التعلم المتقن ، ومتابعة المذاكرة ، والوعى وحسن الفهم والإدراك لما تعلم .

وما الإنسان ، فى كل مواقف حياته إلا تلميذ فى امتحان ...

فليس الامتحان فقط هو أن نرى أسئلة مكتوبة على ورق تتطلب منا الإجابة ، تتعلق بما تعلمنا وذاكرنا ، ولكنه كل موقف حياتى ، له مقاصد ، يتطلب تحقيقها الاستعداد لها ، بحسن إعداد العدة ، والتحسب ، ورشد التفكير ، وحسن تقدير العواقب ، و رشد الربط بين العناصر والجزئيات ربطا منطقيا .

وعندما يغيب كل هذا ، نستطيع أن نقول أن " الضمير " قد غاب ، وفى غياب الضمير ، لك أن تتوقع شر الأمور .

خذ على سبيل المثال عملية اختيار القيادات التعليمية ، وخاصة فى الجامعات والكليات ، والمستويات العليا فى وزارتى التربية والتعليم والتعليم العالى ، تجد أن العلاقات الشخصية ، والهدايا الضخمة ، العينية ،

والنقدية ، والتوصية ، وربما القرابة ، هى المعيار الأساسى ، بالتعاون مع " الرضا الأمنى " ، وليست الأهلية العلمية والكفاءة المهنيـة ،والاسـتقامة الخلقية • وياليت الرضا الأمنى يتعلق بأخلاقيات وانحرافات أخلاقية ،وإنما هو يتعلق فقط بمدى المسايرة للنظام القائم والتزام الطاعة المطلقـة ، ولا يهم بعد ذلك ما تكون عليه من أخلاقيات ، بشرط ألا تتورط ، ولا تـضبط متلبسا ، تماما كما كان الأمر فى النظام الإسبرطى القديم ، حيث كان يُنزل العقاب بالسارق ، لا لأنه سرق ، ولكن لأنه تم كشفه والقبض عليه متلبسا!

فها هنا نجد أن الباب لابد أن ينفتح على مصراعيه ، لما يصعب حصره من سوء السلوك ، والانحرافات الإدارية والمالية والعلمية

هنا لابد أن يغيب الضمير ، وعندها يصح لنا أن نتذكر المثل الشعبى الشهير ، المعبر عن هذا الحال : " غاب القط ، إلعب يا فار " ، والقيـاس مع الفارق بطبيعة الحال !!

والدراسات المتضمنة فى الكتاب الحالى ربما لا تضم إلا دراسة واحدة تتناول موضوع الضمير تناولا مباشرا ، لكن ليس معنى هذا أن العنوان قد أقحمناه على بقية الدراسات والمقالات ، فكما أكدنا ، فإن كل نقد وجهنـاه إلى هذا الجانب أو ذاك هو إشارة إلى غياب ضمير •

حتى هذه الدراسة الأولى عن المرأة موضوعا للتعلم والتعليم ، التـى قد تبدو بعيدة عن عنوان الكتاب ، ذلك أن القارئ إذا تأمل جيدا فى الجزء الثانى من عنوان الدراسة (صورة من صور العدل التربوى) فهذا يعنـى أن هذا العدل التربوى لا يتوافر إلا بتوافر " الضمير التربوى " أو الضمير المهنى إن صح التعبير •

وأخيرا فإننا نكرر ما أكدناه عدة مرات من حيث ما يغلب على كتاباتنا من حدة ، وغضب ، ذلك أن سوء الحال الذى تعيشه مصر منـذ سـنوات غير قليلة يكاد يعتصر قلب كل غيور على هذا الوطن ومستقبله ، وخاصة

كبار السن أمثالى ممن عاشوا زمنا كان غير راضين عنه ، ألا وهو زمن الملكية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فإذا بسيئاته تتصاغر أمام ما نعيشه اليوم وبعد أكثر من خمسين عاما ٠

وفى زمن الثورة ، قاسينا كثيرا ، لكننا كنا نشعر بأننا لسنا ذيولا وأتباعا للأعداء ، حتى بعد أن انهزمنا فى يونية عام ١٩٦٧ ، وربما كانت ضراوة الحرب التى شنت ، لأننا كنا أمة مستقلة حقا ، رافعة الرأس فعلا وحقيقة ٠

من هنا كان من الطبيعى أن يعيش التعليم أسوأ أيامه ، فهو مجرد " ظل " لنظام قائم فقد صلاحيته منذ زمن ٠

وفقنا الله على طريق الحق والخير ، وسدد خطانا نحو ما يحبه ويرضاه ، إنه نعم المولى ونعم المجيب ٠

المؤلف

مصر الجديدة فى ٢٠٠٨/٩/١٢